ABES13

**(13) شرح حديث «تَعَوَّذُوا بِاللَّـهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ...»**

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّـهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ».** وفي رواية للبخاري: «**كان النبي**  **يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء».**

هذا تعوذ من التعوذات المباركة العظيمة المأثورة عن رسولنا صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وفيه التعوذ بالله من أمور أربعة:

الأول: **«جهد البلاء»**؛ وهو كل ما يصيب المرء من شدّة ومشقّة وما لا طاقة له بحمله ولا يقدر على دفعه.

روى ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال: « (جهد البلاء) أن تحتاجوا إلى ما في أيدي الناس». وعن ابن عمر قال : « (جهد البلاء) : كثرة العيال وقلة الشيء». وهذا فرد من أفراد جهد البلاء ولا سيما إذا كان ذلك مع عدم الصبر ووجود الجزع .

الثاني: «**دَرَك الشقاء**»؛ الدرك هو اللحوق والوصول إلى الشيء، والشقاء نقيض السعادة، وهو الهلاك أو ما يؤدي إلى الهلاك، ويكون ذلك في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة.

الثالث: «**سوء القضاء**»؛ أي: سوء المقضي، وهو ما يسوء الإنسان أو يوقعه في المكروه، وهو عام في النفس والمال والأهل والولد والخاتمة.

الرابع: «شماتة الأعداء»؛ وهو ما ينكأ القلب ويبلغ من النفس أشدّ مبلغ، بفرح العدو ببليّة تنزل بمن يعاديه.

قال ابن حجر رحمه الله: «كل واحدة من الثلاثة مستقلة؛ فان كل أمر يُكْره يلاحظ فيه جهةُ المبدأ وهو سوء القضاء، وجهة المعاد وهو درك الشقاء، لأن شقاء الآخرة هو الشقاء الحقيقي، وجهة المعاش وهو جهد البلاء. وأما شماتة الأعداء فتقع لكل من وقع له كلٌ من الخصال الثلاثة. وقال بن بطال وغيره: جهد البلاء كل ما أصاب المرء من شدة مشقة ومالا طاقة له بحمله ولا يقدر على دفعه ، وقيل المراد بجهد البلاء: قلة المال وكثرة العيال، كذا جاء عن بن عمر، والحق ان ذلك فردٌ من افراد جهد البلاء، وقيل هو ما يُختار الموت عليه، قال: ودرك الشقاء يكون في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة، وكذلك سوء القضاء عام في النفس والمال والاهل والولد والخاتمة والمعاد، قال والمراد بالقضاء هنا المقضي، لأن حُكم الله كله حسن لا سوء فيه ، قال وشماته الأعداء: ما ينكأ القلب ويبلغ من النفس أشد مبلغ، وإنما تعوذ النبي من ذلك تعليمًا لأمته، فإن الله تعالى كان أمَّنه من جميع ذلك، وبذلك جزم عياض، قلت: ولا يتعين ذلك بل يحتمل أن يكون استعاذ بربه من وقوع ذلك بأمته، ويؤيده رواية مسدَّد المذكورة بصيغة الأمر، وقال: النووي رحمه الله: شماتة الأعداء فرحهم ببلية تنزل بالمعادي. قال: وفي الحديث دلالة لاستحباب الاستعاذة من الأشياء المذكورة، وأجمع على ذلك العلماء في جميع الأعصار والأمصار . وفي الحديث ان الكلام المسجوع لا يكره إذا صدر عن غير قصد إليه ولا تكلف، قاله بن الجوزي. قال: وفيه مشروعية الاستعاذة، ولا يعارض ذلك كون ما سبق في القدر لا يرد؛ لاحتمال أن يكون مما قُضى، فقد يقضى على المرء مثلا بالبلاء ويقضي أنه إن دعا كُشف، فالقضاء محتمل للدافع والمدفوع ، وفائدة الاستعاذة والدعاء إظهار العبد فاقته لربه وتضرعه إليه».

وقال الشوكاني رحمه الله: «جهد البلاء بفتح الجيم وروي بضمها، وقيل هو بالفتح: كل ما أصاب الإنسان من شدة المشقة، وبالضم: ما لا طاقة له بحمله ولا قدرة له على دفعه. والبلاء ممدود، استعاذ من جهد البلاء لأن ذلك مع ما فيه من المشقة على صاحبه قد يحصل به التفريط في بعض أمور الدين، وقد يضيق صدره بحمله فلا يصبر فيكون ذلك سببا في الإثم.

قوله (ودرك الشقاء)؛ الدرك روي بفتح المهملة وإسكانها، فبالفتح الاسم، وبالإسكان المصدر، وهو شدة المشقة في أمور الدنيا وضيقها عليه وحصول الضرر البالغ في بدنه أو أهله أو ماله، وقد يكون باعتبار الأمور الأخروية؛ وذلك بما يحصل عليه من التبعة والعقوبة بسبب ما اكتسبه من الوزر واقترفه من الإثم. استعاذ من ذلك لأنه النهاية في البلاء والغاية في المحنة، وقد لا يصبر من امتحنه الله به فيجمع بين التعب عاجلًا والعقوبة آجلا.

قوله (وسوء القضاء)؛ هو ما يسوء الإنسان ويحزنه من الأقضية المقدَّرة عليه، وذلك أعم من أن يكون في دينه أو في دنياه أو في نفسه أو في أهله أو في ماله، وفي الاستعاذة منه من ذلك ما يدل على أنه لا يخالف الرضا بالقضاء، فإن الاستعاذة من سوء القضاء هي من قضاء الله وقدره، ولهذا شرعها لعباده ومن هذا ما ورد في قنوت الوتر السابق بلفظ (وقني شر ما قضيت). والحاصل أنها قد وردت السنة الصحيحة ببيان أن القضاء باعتبار العباد ينقسم إلى قسمين: خير وشر، فإنه قد شُرع لهم الدعاء بالوقاية من شره والاستعاذة منه، ولا ينافي هذا ما ورد عنه في بيان معنى الإيمان لمن سأله عنه بقوله (أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره) كما هو ثابت في الصحيحين عنه وغيرهما من طرق، فإنه يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا بما قضاه الله من خير وشر، مستعيذا بالله من شر القضاء، عاملا بمجموع الأدلة، فحديث الإيمان بالقضاء كما دل على أنه من جملة ما يصدُق عليه مفهوم مطلق الإيمان دل على أن القضاء منقسم إلى ما هو خير وإلى ما هو شر، كما قال: (والقدر خيره وشره)، ثم بين بما وقع منه من الاستعاذة من شر القضاء أن ذلك جائز للعباد بل سنة قويمة وصراط مستقيم.

قوله (وشماتة الأعداء)؛ الشماتة هي فرح الأعداء بما يقع على الشخص من المكروه ويحل به من المحنة، قال في الصحاح: الشَماتَةُ: الفرح بِبَلِيَّةِ العدوّ، يقال: شَمِتَ به، يَشْمَتُ شَماتَة،. وباتَ فلانٌ بليلة الشَوامِت؛ أي بليلةٍ تُشْمِتُ الشَوامتَ.انتهى. وفي القاموس شمِتَ كفَرِحَ، شماتاً وشَماتةً : فَرِحَ بِبَلِيَّة العَدُوِّ، وفي النهاية: شماتة الأعداء فرح العدو ببليةٍ تنزل بمن يعاديه انتهى. استعاذ من شماتة الأعداء لعظم موقعها وشدة تأثيرها في الأنفس البشرية ونفور طباع العباد عنها، وقد يتسبب عن ذلك تعاظم العداوة المفضية إلى استحلال ما حرمه الله ».

والذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

قال ابن القيم رحمه الله: «ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاءَ الله لأَزالها وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل سيفٌ فإن قطعْته وإلا قطَعك. فإذا كان السير ضعيفاً، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة؛ فإنه جهد البلاء ودرك الشقاءِ وسوء القضاء وشماتة الأعداءِ، إِلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأْخذ بيده ويخلِّصه من أَيدى القواطع. والله ولي التوفيق».

وكثيرًا ما يسأل من كبَّلتهم الذنوب وأرَّقتهم الخطايا والمعاصي وأعاقتهم عن سلوك سبيل طاعة الله جل وعلا عن الأسباب المعينة لهم على الخلاص من الذنوب والفكاك منها للسلامة من عواقبها الدنيوية والأخروية، وكذلك من تنازعهم نفوسهم لفعل الذنوب والمعاصي بسبب كثرة المغريات وتنوّع دواعي الشهوات.

**ولعلي أذكر ببعض الأمور المعينة لعبد الله المؤمن على الخلاص من الذنوب والفكاك منها**:

**فمن أعظم المعينات على الخلاص من الذنوب**: الحياء من الله جل في علاه ؛ فإن العبد إذا علِم بنظر الله إليه واطلاعه عليه، وأنه من الله بمسمع ومرأى ، وأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية ، استحيا من الله أن يراه حيث نهاه، وأن لا يراه حيث أمره .

**ومن المعينات**: محبة الله جل وعلا الذي يجب أن تُعمر بها القلوب؛ فإن هذه المحبة من أعظم الروادع وأشدها دفعًا للذنوب، فإن المحب لمن أحب مطيع .

**ومن المعينات**: الخوف من الله جل وعلا، ويحرك هذا الخوف في القلب: أن يكون على معرفة بالله وعظمته جل في علاه، وشدة انتقامه، ووعده ووعيده، ودار جزائه، وما أعد فيها من أنواع العقوبات.

**ومن الأمور المعينة للعبد على الخلاص من الذنوب**: معرفة نعم الله ؛ فإن نعم الله جل وعلا تتتالى على العبد وتتوالى عليه في كل وقت وحين ، فلا يليق بعبدٍ نعم الله عليه تتتالى أن يقابل هذه النعم بذنوبٍ تسخط المنعَم وتزيل النعم، وتجلب له جهدَ البلاء ودركَ الشقاءِ وسوء القضاء وشماتة الأعداءِ.

**ومن الأمور المعينات على الخلاص من الذنوب**: النظر في عواقبها الوخيمة ومآلاتها الأليمة وأضرارها المتنوعة في الدنيا والآخرة .

**ومن المعين على الخلاص من الذنوب**: شرف النفس وزكاؤها ورفعتها وعلوُّها؛ فلا يليق بصاحب نفسٍ شريفة أن يدنِّسها ويحقرها ويلوثها بأوضار الذنوب والمعاصي، {بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}[الحجرات:11] .

**ومن الأمور المعينة على الخلاص من الذنوب**: قصر الأمل ، وأن يستحضر العبد أن مدة المقام في هذه الحياة الدنيا لا تطول، فإن الآخرة مقبلة والدنيا مدبرة ، فلا أنفع للعبد من قصر الأمل ، ولا أضر عليه من التسويف وطول الأمل .

**ومن الأمور المعينة للعبد على الخلاص من الذنوب**: تجنب الفضول؛ فضول المطعم والمشرب والمأكل والملبس وغير ذلك، فإن كثرة الفضول تمرض القلب وتعيق عن الوصول .

**ومن الأمور المعينات على الخلاص من الذنوب والفكاك منها**: تجديد الإيمان ؛ فإن الإيمان بحاجة إلى أن يُجدَّد ، وفي الحديث المأثور عن نبينا أنه قال : ((إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)) ، وإذا تجدد الإيمان في القلب أبعد عن النفس تعلقها بالذنوب وإقبالها على المعاصي، ودعاها إلى ما يقرِّب من الله ويدني من رحمته جل في علاه.

ولابد مع هذه الأسباب وبذل الوسع في الإتيان بها من أن يستعين بالله وأن يطلب المدد والعون منه جل في علاه ، وأن يصدُق في الدعاء وأن يحسن في الالتجاء ، وأن يكثر من الإلحاح على الله جل في علاه أن يقيه ويهديه ويصلحه ويزكيه ، فالتوفيق بيد الله وحده لا شريك له ولا رب سواه.

وأسأل الله أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنه سميعٌ قريبٌ مجيب.

وصلى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.